الرسالة

(٢ تيموثاوس ٣:١٠–١٥)

يا ولدي تيموثاوس إنَّك قد استَقرَيْتَ تعليمي وسيرتي وقصدي وإيماني وأناتي ومحبَّتي وصبري* واضطهاداتي وآلامي وما أصابني في أنطاكيةَ وإيقونيةَ ولِسترة. وأيَّةَ اضطهاداتٍ احتملتُ وقد أنقذني الربُّ من جميعها* وجميعُ الذينَ يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيحِ يسوعَ يُضطهَدون* أمَّا الأشرارُ والمغوونَ من الناسِ فيزدادونَ شرًّا مُضِلّينَ ومُضَلّين* فاستمرَّ أنت على ما تعلَّمتَه وأيقنتَ به عالِماً ممَّن تعلَّمت* وأنَّك منذ الطفوليَّةِ تعرِفُ الكتبَ المقدَّسةَ القادِرةَ أن تُصيِّرَك حكيماً للخلاصِ بالإيمانِ بالمسيحِ يسوع.

الفريسي والعشار

العدد ٦ / ٢٠١٧

الأحد ٥ شباط

أحد الفريسي والعشار

تذكار الشهيدة أغاثي

اللحن الثامن

إنجيل السَحَر الحادي عشر

«يا رب إنك شجبتَ الفريسي لما برّر نفسه متفاخراً بأعماله، وبرّرتَ العشّار لما تقدّم بتذلل، مستمداً الغفران بتنهدات، لأنكَ لا تدني الأفكار المتعظمة ولا تقصي المنسحقة. فلذلك نحن أيضاً نجثو لك بتواضع يا مَن تألّم لأجلنا، فامنحنا الغفران والرحمة العظمى» (من صلاة سَحَر أحد الفريسي والعشار).

اليوم مع أحد الفريسي والعشار نبتدئ في الكنيسة رحلتنا الروحية التي تقودنا إلى عيد الفصح، عيد قيامة ربنا من بين الأموات، التي فتحت لنا أبواب الملكوت من جديد. ولكي تكون رحلتنا مثمرة علينا أن نهيّء أنفسنا روحياً، كما نهيّء أنفسنا وحاجياتنا في أية رحلة عادية، كي نحصل على النِعَم التي حققها لنا الرب بقيامته.

أول درس من دروس التهيئة نتعلّمه من خلال مَثَل الفريسي والعشار وهو التواضع، أي أن نختفي ونغيب ليظهر الله فينا. ألم يقل المعمدان لتلاميذه عن المسيح إنه «ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص» (يو ٣: ٣٠). المتكبّر يُبرز نفسه فيختفي الله، بينما المتواضع يختفي ليبرز الله.

لدينا في المَثَل الإنجيلي اليوم إنسانان صعدا إلى الهيكل ليصلّيا: الأول فريسي متديّن، قارئ للكتاب المقدس، يمارس الشعائر الدينية؛ والثاني عشار جابٍ للضرائب، خاطئ بنظر الناس، ولا علاقة له بالأمور الدينية. كلاهما صعدا إلى الهيكل ليحصلا على التبرير أمام الله. المتدين الفريسي عاد خائباً والخاطئ العشار عاد إلى منزله مبرَّراً.

وكأننا بالرب يوضح في مَثَل الفريسي والعشار ما قصده حين قال لرؤساء الكهنة اليهود وشيوخ الشعب: «الحق أقول لكم إن العشّارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله» (مت ٢١: ٣١). مشكلة الفريسي انه في الظاهر مدافع عن الشريعة والإيمان، لكنّ سلوكه لا يعكس ما يؤمن به. تُقاه وفضيلته من نفسه وليسا من الله. زاد هو ليختفي الله. لقد ذهب الفريسي في صلاته إلى أبعد من الإفتخار بما يقوم به من صلوات وأصوام وإحسانات، ذهب إلى حد تمنين الله بما يقوم به. لم يقم

بأعمال البرّ الثلاثة (الصدقة والصلاة والصوم) حسبما علّمنا الرب: «في الخفاء» (مت ٦: ١-١٦). وما هو الخفاء؟ بالتأكيد هو أن لا يعرف الناس ما تقوم به، إنما الأهم أن لا تفتخر أنت بينك وبين نفسك بما تقوم به، لا بل يجب أن تنسى ما قمت به لئلا يجرّبك الشرير فتفتخر. يقول الرب: «وأما أنت فمتى صنعتَ صدقة فلا تُعرِّف شمالك ما تفعل يمينك» (مت ٦: ٣). مَنْ الذي سيُعرِّف شمالك ما صنعت يمينك إلا أنت؟ إذاً، اصنعْ صدقتك (وصلاتك وصومك) وامشِ «لكي تكون صدقتك في الخفاء. وأَبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية» (مت ٦: ٤).

مشكلة الفريسي، وكثير منا معه، أن كلمات الرب التي قرأها ونقرأها في الكتاب المقدس لا تتحوّل إلى فعل حياة وسلوك يومي. يوصي الرب على لسان إرميا النبي (٩: ٢٣-٢٤) أن لا يتفاخر الحكيم بحكمته، ولا القوي بقوته، ولا الغني بغناه، ولا صاحب المكانة الإجتماعية بعائلته ونسبه، بل مَنْ افتخر فليفتخر بهذا: «أن يفهم الرب ويعرفه فيصنع إنصافاً وعدلاً في وسط الأرض».

لقد كان الفريسي بصلاته منشغلاً بنفسه وليس بخلاص نفسه. أراد أن يُظهر لله كم هو إنسان جيد وحسن، ولكن كما يقول الأنبياء: هذا شعب يعبدني بشفتيه أما قلبه فبعيد عني. المَثَل الإنجيلي اليوم يصوّر لنا كيف يدخل كثيرون منا إلى الكنيسة للصلاة فيما قليلون مَن يشتركون فيها بالفعل. العشار الخاطئ فهم أن المهم أن يكون قلبه مع الله لذا كانت صلاته مقبولة. وقف من بعيد «ولم يُرد أن يرفع عينيه إلى السماء بل كان يقرع صدره قائلاً اللهمّ ارحمني أنا الخاطئ». لم يُبرّر ما قام به من خطايا، بل اعترف بها بتواضع طالباً الغفران. لم ينصِّب نفسه إلهاً ديّاناً مكان الله كما فعل الفريسي الذي قال: «إني أشكرك لأني لست كسائر الناس الخطفة الظالمين الفاسقين ولا مثل هذا العشار». أن يجعل الإنسان نفسه إلهاً مكان الله هو بالتحديد الفخ الذي نصبته الحية لآدم وحواء عندما أغوتهما بالأكل من ثمر شجرة المعرفة: «إنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر» (تك ٣: ٥). المتكبّر يصل به غروره إلى حد اعتبار نفسه إلهاً، وهذا ما سبّب طرده من الفردوس.

من خلال هذا المَثَل تعلّمنا الكنيسة في بداية رحلة العودة إلى الفردوس المفقود أنّ أولى أسس العودة هي التواضع كما فعل العشار. تعلّمنا الكنيسة أنه مغبوط مَن يعترف أمام الله ويكشف عن جراح نفسه بتواضع دون أن يدين الآخرين. مثلُ هذا يشفيه الرب ويتحنّن عليه فيهبه الغفران والشفاء.

إنجيل اليوم يذكّرنا بكلام الرب على لسان الرسول بولس: «فانظروا دعوتكم أيها الإخوة أن ليس كثيرون حكماء حسب الجسد، ليس كثيرون أقوياء، ليس كثيرون شرفاء، بل اختار الله جهّال العالم ليخزي الحكماء، واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء. واختار الله أدنياء العالم والمُزدرى وغير الموجود ليبطل الموجود. لكي لا يفتخر كل ذي جسد أمامه، ومنه أنتم بالمسيح يسوع الذي صار لنا حكمة من الله وبرّاً وقداسة وفداء. حتى كما هو مكتوب مَنْ افتخر فليفتخر بالرب» (١ كو ١: ٢٦-

الإنجيل

(لوقا ١٨: ١٠-١٤)

قال الربُّ هذا المَثَل. إنسانان صعِدا إلى الهيكل ليُصلِّيا أحدُهما فرّيسيٌّ والآخرُ عشَّارٌ* فكان الفريسيُّ واقفاً يصلّي في نفسه هكذا: أللَّهمَّ إنّي أشكركَ لأنّي لست كسائر الناس الخَطفةِ الظالمين الفاسقين ولا مثل هذا العَشّار* فإنّي أصوم في الأسبوع مرَّتينِ وأُعَشِّرُ كلَّ ما هو لي* أمَّا العَشّار فوقف عن بُعدٍ ولم يُرِدْ أن يرفعَ عينيه إلى السماء بل كان يقرعُ صدره قائلًا: أللَّهم ارحمني أنا الخاطئ* أقول لكم إنَّ هذا نزلَ إلى بيته مُبرَّراً دون ذاك. لأنَّ كلَّ مَن رفع نفسه اتَّضع ومَن وضع نفسه ارتفع.

تأمل

يجب على الصالحين ألاّ يستكبروا كما لو كان ذلك ناجماً عن استحقاقاتهم الخاصة، وكذلك على المتهاونين ألاّ ييأسوا من رحمة الله. بل فليحافظ

الأوّلون على عطايا الله بتواضع، ولْيَلجأ الأخيرون، بندمٍ بالغ وسرعة، إلى هذه العلاجات التي هي التوبة والإصلاح. لأنَّ الصالح يُذل فور شروعه في التكبّر، فيما المتكبّر يُرفع برحمة الله إن تواضع.

إن لم يبتغِ الإنسان امتلاك أسس تواضعٍ حقيقيّ فلن يستطيع أن يكون راسخاً ثابتاً، أياً كانت خيراته. في هيكل بناء المسيح، يشيَّد انطلاقاً من الأسفل للارتفاع نحو القمم، وأمّا في هيكل بناء الشيطان فانطلاقاً من القمة للإسقاط نحو الأسفل. إنّ أبناء الله وأبناء الشيطان لا يتميّزون في الواقع إلّا من خلال التواضع أو الكبرياء. وما قَذف به الشيطان إلى الأسفل عبر الكبرياء رفعه المسيح عبر التواضع؛ لا ذاك الذي يُظهره المرء من حينٍ إلى آخر فحسب، خارجياً، بل ذاك الذي يحافظ عليه في الضمير. وعليه، فالذي يستر الكبرياء في قلبه إنما يُشيع نتانةً فظيعةً عند لَومه، فيما الوديع والمتواضع ٣١). لقد اخزى الرب الفريسي عبر العشار، فهل سينوجد مَن يقيمه الرب أمامنا يوم الدينونة لنخزى نحن أيضاً؟

الصوم على الأبواب

اليوم أحد الفرّيسيّ والعشّار، اليوم يقرع جرس كتاب التريودي إيذانًا باقتراب موسمٍ أربعينيّ مقدَّس يقودنا إلى موسم المواسم، أي قيامة الربّ المجيدة.

كلّ الأصوام في كنيستنا المقدّسة تقودنا إلى أحد الأحداث الخلاصيّة، إلاّ أنّ الصوم ليس فترة تهيئة جسديّة فحسب، بل هو فترة تحضير النّفس والقلب والعقل واللّسان لاستقبال الخلاص بربّنا يسوع المسيح. إذا أخذنا مثلًا بشريًّا مفترضين أنّنا دُعينا إلى عرس شخصيّةٍ مهمّة في المجتمع، فإنّنا نهرع إلى شراء أفخر الملابس والتزيُّن بأبهى الحليّ وأثمنها والتعطّر بأفضل العطور رائحة، ليس هذا فقط، إنّما نبدأ بتثقيف أنفسنا حول أحدث المواضيع المطروحة في المجتمع حتّى نظهر أنّنا على اطّلاع بكلّ شيء، إضافة إلى ذلك نبدأ بتحضير ذواتنا نفسيًّا لأيّ لقاءٍ محتمَل مع أشخاص سوف نلتقي بهم. فإذا كانت الحال هكذا بالنسبة إلى عرسٍ أرضيّ، ما بالنا إذًا متى كان العرسُ سماويًّا؟!

يقول القدّيس باسيليوس الكبير: «الإنقطاع عن الأطعمة لا يكفي في ذاته ليكون صومًا ممدوحًا، بل لنصُم صومًا حسنًا مقبولاً لدى الله. الصوم الحقيقيّ هو الإبتعاد عن الشرّ. الصوم الحقيقيّ هو ضبط اللسان والكفّ عن الغضب وغياب الرذائل؛ بهذا يكون صومك حسنًا». ويقول القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم: «ليس الصوم مجرّد امتناع عن الأطعمة، بل عن الخطايا أيضًا، لأنّ صومًا مثل هذا لا يُربِح مَن يُمارسونه ما لم يكن بحسب الوصيّة: إن كان أحدٌ يُجاهد لا يُكَلَّل إن لم يُجاهد قانونيًّا (٢تي ٢: ٥)»، كما يقول في موضع آخر: «هل تصوم؟ أرني ذلك بأعمالك. إن رأيتَ مسكينًا أشفق عليه، وإن رأيتَ عدوًّا تصالح معه. لا يصم فمك وحده بل عيناك أيضًا وسمعك وكلّ أعضاء جسدك»، كما يقول: «ليتنا لا نثق بأنّ الصوم الخارجيّ عن أطعمة منظورة يكفي وحده لنقاوة القلب وطهارة الجسد ما لم يصاحبه صوم النفس. كرامة الصوم ليست في الإمتناع عن الطعام بل في الإنسحاب من الأعمال الشرّيرة». ويقول القدّيس يوحنّا السلّمي: «طريق الصوم يؤدّي إلى طريق النقاوة. الصوم هو بتر الشهوة والأفكار الشريرة وهو نقاوة الصلاة واستنارة النفس وضبط العقل والتخلّص من قساوة القلب وهو الباب للندم». ونجد في كتاب بستان الرّهبان كلامًا يعبّر عن مفهوم الصوم الحقيقيّ: «لا بدّ من أن يرتبط الصوم بالتوبة، لأنّ المهمّ هو القلب النقيّ وليس الجسد الجائع. إنّ إمساك البطن هو أن تقلّل من شبعك قليلاً، وإن كان عليك قتالٌ فاترك قليلاً أكثر. لا تصم بالخبز والملح وأنت تأكل لحوم الناس بالدينونة والمذمّة. لا تقل إنّك صائم صومًا نظيفًا وأنت متّسخ بكلّ الذنوب. من يضبط فمه فإنّ أفكاره تموت كجرّة فيها حيّات وعقارب، إن سُدَّ فم الجرّة تموت. الصوم من دون صلاة واتّضاع يُشبه نسرًا مكسور الجناحين». إذًا، يتّفق الآباء

القدّيسون، ويعلّموننا، أنّ الصوم ليس صوم الفم والمعدة فقط (ثمّة أناس لا يأكلون أساسًا سوى البقول والخضار والفاكهة طوال حياتهم من دون أن يذوقوا اللحوم أو أيًّا من المشتقّات الحيوانيّة الأُخرى) بل هو الصوم الرّوحيّ في البداية.

إنّ طاعة الكنيسة في ما وضعته من صوم عن المأكول والمشروب مباركة إذا كانت هذه الطاعة ستؤدّي إلى لجم الجسد (بتخفيف الأطعمة، وتاليًا تخفيف موارد الطاقة) عن إستغلال هذه الطاقة في أذيّة أنفسنا والآخرين من خلال الخطايا التي نقترفها قولاً أو فعلاً أو فكرًا. أمّا إذا كانت هذه الطاعة ستؤدّي بنا إلى الكبرياء والظهور في كلّ مكان بمظهر الصائم المسكين أو بمظهر التّقي على الطريقة الفريسيّة، فإنّ هذه الطاعة مشجوبة، لأنّها ستتحوّل من طاعةٍ مقدّسة إلى عبوديّة توصل إلى الهلاك، إذ ستكون ذئبًا بثياب حمل، أي من الخارج هي مظهر مقدَّس، إلاّ أنّها في جوهرها مصيدة للنفس نصبها الشيطان ليوقع فيها كلّ نفس ضعيفة أمام الخطيئة، مهما ظهرت قوّية أمام ضبط الفم عن الطعام.

في النهاية، سوف نسمع كلُّنا عظة القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم الفصحيّة الداعية الجميع إلى الإشتراك بالحمل الفصحيّ، صائمين كنا أم لا: «صمتم أم لم تصوموا إفرحوا اليوم. المائدة مملوءة فتمتّعوا كلّكم. العجل سمين فلا يخرجنَّ أحدٌ جائعًا». لا تنفي هذه الدعوة أهميّة ضبط النفس أمام الطعام والشراب، لكنّها في الوقت نفسه تؤكّد أنّ الصوم في البداية هو الصوم الروحيّ، فلا يعود يهمّ إن كنّا أكلنا أم لم نأكل، لأنّ المهمّ سوف يكون إن كنّا هيّأنا أنفسنا من الدّاخل بحقّ لكي نكون مستحقّين الدّخول إلى وليمة عرس الحمل.

من أقوال الآباء

+ غالبيّة الناس يحكمون وينتقدون الآخرين بسهولةٍ كبيرة لأنّهم لا يفحصون خطاياهم قبل أن يفحصوا خطايا الآخرين. كلّنا نتغاضى عن خطايانا وننشغل بخطايا الغرباء، على العكس إن فكّرنا بخطايانا لكنّا رحماء مع أقربائنا ولسامحناهم بسهولةٍ أكبر.

+ لا شيء يقود إلى الاستعلاء، ولا شيء يفصل الإنسان عن الآخرين بقدر اعتقاده أنّه مكتفٍ بنفسه وليس بحاجةٍ إلى أحد. لقد خلقنا الله على نحو نكون به كلّ واحدٍ بحاجةٍ إلى الآخر، وحتى إن كنتَ حكيماً فأنت بحاجة إلى مساعدة إخوتك في الإنسانيّة، وإن اعتقدت بأنّك لستَ بحاجةٍ إلى هذه المساعدة فأنت الأكثر غباءً والأكثر ضعفاً من الجميع، لأنّك في خطاياك التي لا بدّ منها لن يوجد أحد لكي يصلحك وستُغضب الله بكبريائك.

القديس يوحنا الذهبي الفم

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb

ينشر عَرْفاً مستَحَباً. لا تنتقد شيئاً، لا تجادل في شيء، لا تكن لديك القِحة على التذمّر مطلقاً في أيّة مناسبة. الراهب مثلاً يدخل الدير ليخدم لا ليقود، ليُطيع بالحريّ لا ليأمر. لا تجتهد في قطع لسانك عن التذمّر المميت فحسب، بل ولا تُصغِ بطيبة خاطرٍ إلى أحدٍ آخر يتذمّر. حاول بالحريّ وقَدْر قواك، أن تخفّف من غضبه بنُصحك المقدّس المحسن. إذاً، ثمّة معاونون لله؛ وحالما يرون سمّ الكبرياء متسرِّباً إلى قلب أحد إخوتهم، يجتهدون على جناح السرعة في التصدّي له عبر دواء التواضع الحقيقي. إن لم يكن لدى الراهب المحبّة والتواضع الحقيقي، فلا ينبغي عليه أن يضع كلّ اتّكالهِ وكلّ ثقتهِ في الثوب الرهباني وحده، وذلك لئلّا يكون كالقبور المجصَّصة (مت ٢٣: ٢٧).

القديس كيساريوس